﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

[القلم: 51 - 52]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَها:

دفاعُ الله عنِ الحقِّ المُبين إعانةٌ للصَّبر على الكافرين

لمّا أمرَ المولى تعالى نبيَّهُ الكريمَ ﷺ بالصَّبر على الدَّعوة، وعدمِ التَّعجُّل فيها والضَّجَر من المُكذبين؛ ناسبَ أنْ يُبيِّن له شدَّةَ عداوتِهم له وللقرآنِ الكريم، وأنْ يدافعَ عنهُما؛ ليكونَ ذلك إعانةً له على التَّكليفِ بالصَّبر عليهم، وأنَّ الله تعالى هو الَّذي يدافعُ عن النَّبيِّ الكريمِ والقرآنِ ذي النّور المبين، قال أبو حيّان: "وَلَمّا أمَرَهُ تعالى بِالصَّبْرِ لِما أرادَهُ تعالى، ونَهاهُ عَنْ ما نهاه؛ أخبر بِشِدَّةِ عَداوَتِهِم؛ ليَتَلَقَّى ذَلِكَ بِالصَّبْرِ، فقال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ﴾"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾: (زلق) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تزلُّجِ الشَّيءِ عَن مَقامِه، من ذلك الزَّلَقُ[2]، وزَلِقَتِ القَدمُ زَلَقًا (من بابِ تعِبَ): لم تَثْبُتْ حتّى سقطَتْ، ويُعدّى بالألفِ والتَّشديد، زلَّقتُهُ، وأزلقتُهُ، فتزلَّقَ[3]، فهو الزِّلَّةُ والسُّقوط[4]، والمُرادُ بهِ في الآية: يَجعلونَكَ مُتنَحّيًا عنِ الثُّبوت، وساقطًا بنظَرِهِمُ الحادِّ.

2) ﴿ٱلذِّكْرَ﴾: (ذكر) أصلانِ عنهُما يتفرَّعُ كَلِمُ الباب، الأوَّلُ: قِبالُ الأُنثى، والآخَرُ: ذكَرْتُ الشَّيءَ خِلافُ نَسيتُهُ، ثمَّ حُمِلَ عليه الذِّكرُ باللِّسان[5]، وذكرتُهُ بلساني وبقلبي، والاسمُ ذِكْرٌ، وبالكسر نصَّ عليه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 249.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زلق).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (زلق).
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 330.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).

جماعةٌ، وأنكرَ الفرّاء الكسرَ في القَلب، وقال: اجعَلْني على ذُكْر منك بالضَّمِّ لا غير، ويتعدّى بالتَّضعيف وبالألف، فيقالُ: أذكرتُهُ، وذكَّرتُهُ ما كانَ، فتذكَّرَ[1]، فهو التَّذكُّرُ في قِبالِ الغَفلةِ والنِّسيان، وهذا المَعنى أعمُّ من التَّذكُّرِ بالقلبِ أوْ باللِّسان، وقد يُطلقُ (الذِّكرُ) على ما يُذكَّرُ به مُبالغةً، فكأنَّه وجودٌ خارجيٌّ عن الذِّكر ومَظهَرٌ له، كما في (زيد عدلٌ)[2]، والمرادُ به في الآيةِ: التَّذكيرُ والتَّنبيهُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

والمَعنى: إنَّهم لشدَّةِ عَداوتِهم يَنظرونَ إليك أيُّها النَّبيُّ الكريم شَزَرًا، بحيثُ يكادونَ يُزِلّونَ قدمَكَ، أوْ يُهلكونَك، أوْ أنَّهم يكادونَ يُصيبونَك بالعَين، ويَقولونَ حينَما يَسمعونَ القرآنَ منهُ: إنَّك أيُّها القارئُ للقرآنِ لمصابٌ بمَسٍّ من الجنِّ، أوْ إنَّك لمُختَلُّ العقل مُغيَّبُهُ؛ حَيرةً في أمرِهِ وتنفيرًا عنه، وما القرآنُ ولا النَّبيُّ إلّا تذكيرٌ عامٌّ لجميعِ الثَّقلين، لا يُدركهُ، ولا يتعاطاهُ إلّا مَن كان أكملَ النّاسِ عقلًا، وأميزَهُم رَأيًا[3].

الاتِّهامُ بالجُنون قولٌ ساقِطٌ غيرُ مَصون

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الوصل في ﴿وَإِن﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للدَّلالة إمّا على الاستئناف بذكرِ خصلةٍ أُخرى من خِصال الكافرين؛ زيادةً على تلك الصِّفات التي اتَّصفوا بها في ذَواتهم، من قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾، إلى قوله: ﴿زَنِيمٍ﴾، أوْ تلك الَّتي صدرَتْ عنهم في قوله: ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أوْ تلك الَّتي أضمرَها النَّظمُ من دعواهُم أنَّ لهم ما للمُسلمينَ من جنّات النَّعيم

العَداوةُ السّارية مِنَ القلبِ إلى الباصِرَة

(1) الفيوميّ، المصباح المنير: (ذكر).
(2) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 3/ 306.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 238.

على فَرضِ النَّشر والبَعث، فذكرَ هنا خصلةً تتعلَّقُ بأبصارِهم لمّا كانوا يَسمعونَ القُرآن الكريم، تلك الخصلةُ التي تدلُّ على عَداوةٍ عظيمةٍ للنَّبيِّ الكريم والذِّكر الحكيم معًا؛ إذ بيَّنَ سُبحانه بالغَ عَداوتِهم له ﷺ، فذكرَ أنَّها سَرَتْ من القلبِ إلى النَّظر[1]، وإمّا على: "العَطفِ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾؛ إذ عَرَّفَ اللّه رَسولَهُ ﷺ بَعْضَ ما تَنْطَوي عَلَيْهِ نُفوسُ المُشْرِكينَ نَحْوَ النَّبي ﷺ مِنَ الحِقْدِ والغَيْظِ وإضمار الشَّرِّ عندما يَسْمَعونَ القُرْآنَ"[2]، والَّذي يبدو: أنَّها استئنافيَّةٌ لإنهاءِ السّورةِ بما بدأتْ به من اتِّهام للنَّبيِّ ﷺ بالجنونِ بسببِ نعمةِ ربِّه عليه بالقرآنِ الحكيم، وذلك بالدِّفاع عنه وعن القرآنِ الَّذي هو نعمةٌ لكونِهِ ذكرًا للعالَمين، والسَّببَ في ذلك الاتِّهامِ الشَّنيع.

دلالةُ (إنْ) والغرضُ منها:

توكيدُ مُقاربةِ الإزلاق لشِدَّةِ الكَراهيةِ وعَظيمِ الافتراق

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(إنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للدَّلالة على التَّوكيدِ والتَّثبيتِ لمُقاربةِ الذينَ كفروا أنْ يُهلكوا النَّبيَّ ﷺ لشِدَّةِ العَداوة في قلوبِهم له، وقوَّةِ نظرِهم الحاقدِ الشَّزرِ لهُ، فـ(إن) هنا كما قال الأخفش: "مُخفَّفةٌ من الثَّقيلة، كما تقولُ: (إنْ كانَ عبدُ اللّه لَظريفًا)؛ فمعناهُ: إنَّ عبدَ اللّه لظريفٌ قبلَ اليوم"[3]، والدَّليلُ على أنَّها مُؤكِّدةٌ لا نافيةٌ: اتِّصالُ اللّامِ الفارقةِ بما في حَيِّزِها: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾، وسُمّيت بذلك؛ لكونِها فارقةً بينَها وبينَ النَّفي، ولا حاجةَ لتقديرِ اسمِها ضميرَ الشَّأن والحالِ، كما فعلَ الهرريُّ[4]؛ لأنَّ إهمالَها أكثرُ من إعمالِها.

دلالةُ فعلِ المُقاربة ﴿يَكَادُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

مُقاربةُ الإيذاءِ مُسفرةٌ عن شِدَّةِ العَداوة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ المُقاربة مُضارِعًا في قولِه تعالى: ﴿وَإِن

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 114.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 107.
(3) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 547، والواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 120.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 114.

﴿يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ﴾؛ للدَّلالة بمادَّتِهِ على مُقاربة الخبرِ الَّذي هو الإزلاقُ من الوجودِ والتَّحقُّق في الخارجِ، لكنْ لم يوجَدْ، ولم يتحقَّقِ الإزلاق، لكنْ تحقَّقتِ العَداوة التي استحكمَتْ في قلوبهم، حتّى إنَّهم لفَرْطِها يكادونَ يُؤثِّرونَ فيه بالواقع، قال القونويُّ: "فإنَّ (كادَ) من أفعالِ المُقاربة، وُضِعَتْ لمقاربةِ الخبرِ من الوُجود؛ لعُروضِ سببِهِ، لكنَّه لم يوجَدْ إمّا لفقدِ شَرطٍ أوْ لعروضِ مانعٍ، وهنا لم يوجَدْ لفقدِ شَرْطِه معَ عُروضِ سببِهِ، وهو النَّظرُ المَذْكور بفرضِ إمكانِ سببيَّتِه، وهنا يقال: إنَّه لو أمكنَ بالنَّظرِ إزلاقُ القَدَم؛ لفعلوهُ، وفيه بيانُ كمالِ شدَّةِ عَداوتهم، وهو من ألطفِ المَعاني وأفصَحِها"[1]، وللدَّلالة بصيغتِهِ على "استِمْرارِ ذَلِكَ في المُسْتَقْبَلِ"[2].

دلالة الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإبهامُ المُعقَّبُ بالتَّفصيل مشوِّقٌ للإصغاءِ إلى التَّكميل

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للدَّلالة على العُمومِ والإبهامِ الَّذي يَعقبُهُ التَّفصيل والتَّوضيحُ بجملةِ الصِّلة، فيكونُ من قبيلِ التَّفصيلِ بعد الإجمال، وهو مقصدٌ بلاغيٌّ مهمٌّ، كما يدلُّ الموصولُ على جمعٍ معهودٍ في الذِّهن يتحقَّقُ مدلولُهُ بعدَ النُّطقِ بجملةِ الصِّلة.

دلالةُ جُملةِ الصِّلة ﴿كَفَرُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الإشعارُ بجنسِ الخَبَرِ يُقوّي الحَدْسَ والنَّظَر

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالجملةِ الفعليَّة الماضيَة صلةً، في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ مَضمونِ الصِّلة تحقُّقًا ثابتًا مَقطوعًا بحصولِهِ، كما تومِئُ الصِّلةُ بمضمونِ الخبر بأنَّه من جنسِ العمَلِ السَّيِّئ؛ إذِ الاتِّصاف بالكفرِ يُنبئُ عن كونِ الفعل قبيحًا لا يليقُ إلّا بالكافرين، كما تفيدُ الصِّلةُ تعليلًا لكونهم قريبينَ من إزلاقِ النَّبيِّ الكريم ﷺ.

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 252.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108.

دلالةُ (اللّام) في ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾:

استعملَ النَّظمُ الكريمُ (اللّام الفارقةَ)، في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ﴾؛ للدَّلالة على التَّوكيدِ للحُكم والتَّثبيتِ لمضمون ثُبوتِ الإزلاقِ للَّذين كفروا؛ لأنَّ " اللّامَ في ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ لامُ الابْتداءِ، الَّتي تَدْخُلُ كَثيرًا في خَبَرِ (إن المَكْسورَةِ)، وهي أيْضًا تُفَرِّقُ بَيْنَ (إن) المُخَفَّفَةِ وبَيْنَ (إن) النّافيَةِ"[1].

تـوكيـدُ الإزلاق لشِدَّةِ الشِّقاق

دلالةُ الفعلِ المُضارع (يُزلقونَك) مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المُضارع في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ﴾؛ للدَّلالة بمادَّتِهِ على "زَلَلِ الرِّجْلِ مِنْ مَلاسَةِ الأرْضِ مِنْ طينٍ عليها أو دُهْنٍ، وأريد به هنا السُّقوطُ والاندحاضُ، أي: يُسْقِطونَكَ، ويَصْرَعونَكَ، وعن مُجاهد: يَنْفِذونَكَ بِنَظَرِهِم، وقال القُرْطُبيُّ: يُقالُ: زَلَقَ السَّهْمُ، وزَهَقَ؛ إذا نَفِذَ"[2]، وللدَّلالة بصيغتِهِ على وقوعِ ذلك منهم على سبيلِ الاستمرارِ والتَّجدُّدِ.

الـــدَّحْـــضُ والإســـقـــاط لشخصِ النَّبيِّ ودينِهِ الحقِّ

فعلُ (الإزلاق) بينَ الحقيقةِ والمَجاز:

عبَّرَ النَّظم الكريمُ بفعلِ (الإزلاق)، في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ للدَّلالة إمّا على المعنى الحقيقيِّ، وهو الإصابةُ بالعَين والحسَدُ بالبصرِ للنَّبيِّ ﷺ، "وصُرِفَ ذلك إلى قومٍ بأعيانِهم قد عُرفوا بخُبثِ الأعيُنِ وحلولِ الآفات بمَن يُعينونَهُ منْ أهل الشَّرفِ والتَّبجيل، ثمَّ اللّه تعالى بفضلِهِ عصَمَ رسولَه ﷺ، فلم يتهيَّأْ لهم أنْ يُعينوه، فكانَ فيه تقريرُ رسالتِه وآية نبوَّته عند أولئك الكفرة"[3]، قالَ الواحديُّ: "والمُفسِّرون بعضُهُم على أنَّ هذه الآيةَ نزلَتْ في قَصْدِ الكُفّار أنْ يُصيبوا رسولَ اللّه ﷺ بالعَين، وكانوا ينظرونَ إليه نظرًا شديدًا، ويقولونَ: ما رَأينا مِثلَهُ ولا مثلَ حُجَجِه،

المجازُ والحقيقة يـــدلّانِ عـلى الـــكـــراهـــةِ الشَّديدة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 107.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 161، والواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 121.

يُريدونَ أنْ يُصيبوهُ بالعَين، وهذا قولُ الكلبيِّ ومَن تابعَهُ[1]، وإمّا على المعنى المجازيِّ وهو قولُ المُحقِّقين من المُفسِّرينَ وأهلِ العربيَّة، بأنَّهُم "مِنْ شِدَّةِ تَحْديقِهِم ونَظَرِهِم إلَيْكَ شَزْرًا بِعُيونِ العَداوَةِ والبَغْضاءِ، يَكادونَ يُزِلّونَ قَدَمَكَ، مِن قَوْلِهِمْ: (نَظَرَ إلَيَّ نَظَرًا يَكادُ يَصْرَعُني، ويَكادُ يَأْكُلُني)، أي: لَوْ أمْكَنَهُ بِنَظَرِهِ الصَّرْعُ أوِ الأكْلُ؛ لَفَعَلَهُ، قال ابنُ قتيبة: "ليس يريدُ اللّهُ ﷻ في هذا الموضعِ أنَّهم يُصيبونَكَ بأعيُنِهم كما يُصيبُ العائنُ بعينِهِ ما يُعجبُهُ، وإنَّما أرادَ أنَّهم يَنظرونَ إليك إذا قرأتَ القرآنَ نظَرًا شديدًا بالعَداوة والبَغضاء، يكادُ يُزلِقُكَ، أي: يُسقِطُكَ[2]، ويدلُّ: "على صحَّة هذا المعنى أنَّه قرنَ هذا النَّظر بسَماعِ القرآن، وهو قوله: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾؛ لأنَّهم كانوا يَكرهونَ ذلك أشدَّ الكَراهة، ويُحدّون النَّظرَ إليه بالبغضاء"[3]، والإصابةُ بالعَين إنَّما تكونُ مع الإعجاب والاستحسان، ولا تكونُ معَ الكراهيَةِ والبُغض، ويدلُّ أيضًا قولُهُ: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾، أي: يَنسبونَهُ إلى الجُنون؛ إذا سَمعوه يقرأُ القرآنَ[4]، وعلى كلا الاحتمالين فإنَّ الإزلاق بالأبصار دالٌّ على الكراهةِ الشَّديدة والعَداوةِ المُستحكِمة؛ إذِ الإصابةُ بالعينِ تجتمعُ معَ الكراهيَةِ والبُغض بينَ العائنِ والمَعيون.

دلالةُ الكِناية في (يُزلقونَك):

الصَّرعُ والإسقاط مِن لوازمِ زَلَلِ الرِّجلِ والإزلاق

كنَّى النَّظمُ القرآنيُّ بفعلِ (الإزلاق) الدّالِّ وضْعًا على زَلَلِ الرِّجلِ لمَلاسةِ الأرضِ الواردِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ عنِ الإسقاطِ والصَّرع والإدحاض؛ إذِ الزَّلَقُ يُفضي إلى السُّقوطِ غالبًا[5]، ولعلَّ الدّافعَ إلى (الكناية) إظهارُ رغبةِ الأعداءِ بزلَلِ قدمِهِ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 121.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 121.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 115.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 121.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 107.

ﷺ، كما فعلَ أصحابُ السَّفينة بالنَّبيِّ يونُس عليه السلام، عندَما زَلَقوه، وأسقَطوه من السَّفينة؛ ليكونَ في عُرْض البَحر وفم الحوتِ، ويحتملُ أن يكونَ الدّافع إلى (الكناية) أنَّ الأبصارَ لا يصِلُ تأثيرُها إلى الإسقاطِ، بل جلُّ تأثيرها في الزَّلَقِ والانزلاق، حتّى تكون المقاربةُ معقولةً ومقبولةً، قال السَّمين: "فيكونُ ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ كنايةً عن الإهلاكِ أوْ مَجازًا عنه"[1].

دلالةُ الاستعارةِ المكنيَّة في ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾:

أبصارٌ كالسِّهام تريدُ إسقاطَ أكرَمِ الكِرام

استعارَ النَّظمُ القرآنيُّ السِّهام للأبصارِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ للدَّلالة على شدَّة تلك الأبصارِ وقوَّةِ تأثيرها، حتّى إنَّها لتكادُ تُسقِطُ، وتصرَعُ المُبصَرَ لِحِدَّتها، قال ابنُ عاشور: "وعلى جَميعِ الوُجوهِ، فَقَدْ جَعَلَ الإزْلاقَ بِأَبْصارِهِمْ على وجْهِ الاسْتِعارَةِ المَكْنِيَّةِ، شُبِّهَتِ الأبْصارُ بِالسِّهامِ، ورُمِزَ إلى المُشَبَّهِ بِهِ بِما هوَ مِن رَوادِفِهِ، وهوَ فِعْلُ (يُزْلِقونَكَ)"[2].

تعدُّد القراءاتِ في ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾:

المُزلَقُ أكثرُ مُبالغةً من المُنْزَلِق

قرأ الجمهورُ ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ بضَمِّ (الياءِ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ﴾، من (أزلقَهُ) المَزيدِ بالهَمزة للتعدية؛ إذا أزلَّ رِجلَهُ، وقرأ نافعٌ وأهلُ المدينةِ بفَتحِها: ﴿لَيَزْلِقُونَكَ﴾[3]، من (زَلَقَ عن مَوضعِهِ يَزلَقُ) متعدّيًا؛ إذا نحّاهُ عن مَكانِه، فتَنَحَّى، يقالُ: زَلَقَ هو، وزَلَقْتُهُ، مثلُ: حَزَنَ وحَزَنْتُهُ، والأوَّلُ أكثرُ وأوسَعُ؛ لأنَّه يقال: زَلَقَ مِن مَوضعِهِ، وأزلقتُهُ أنا، فيُنقَلُ الفعلُ بالهمزة[4]، والَّذي يَظهرُ أنَّ القراءةَ بمضارع (أزلق) يَلزمُها اسمُ المفعول (مُزلَقٌ)، في حين

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 252.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 107.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 389.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 22/ 121، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 114.

أنَّ لازمَ قراءةِ الفتحِ المُطاوِعُ (مُنزلِقٌ)، وممّا لا شكَّ فيه أنَّ وقوعَ الفعلِ عليه أشدُّ معنًى من قَبولِهِ الانزلاقَ والتَّنحّي؛ إذ لا يُتصوَّرُ الانزلاقُ في حقِّه ﷺ.

دلالةُ ضميرِ الجَمعِ (الواو) في ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾:

التَّوافُقُ في الحِقد والبَغضاء للتَّكذيب والإيذاء

أسندَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ (الإزلاق) إلى ضميرِ الجمعِ الغائب العائدِ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ للدَّلالة على توافُقِهم في البَغضاء والحِقد على النَّبيِّ الكريم ﷺ، وأنَّهم كانوا جبهةً موحَّدةً ضِدَّهُ في التَّكذيبِ والإيذاءِ والرَّغبةِ أن يُهلكوهُ بأنظارِهم الحاقدةِ الغاضِبة.

نُكْتَةُ إيرادِ (الباء) في ﴿بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ والغرضُ منها:

الاستعانةُ بالأبصار لإهلاكِ النَّبيِّ المُختار

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بحرفِ الجرِّ (الباء) في قولِهِ تعالى: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ للدَّلالة على آلةِ الإزلاقِ وسبَبِهِ، أي: مُستعينينَ بأبصارِهم من أجلِ تحقيقِ ذلك، والغرضُ من ذِكرِ الآلةِ المُستعمَلة في الإزلاقِ الاحتراسُ عن مُقاربَتِهم لإهلاكِهِ بأدواتِ القتل المَعروفة، وفي ذلك تشخيصٌ لآلةِ الإزلاق، وهو البَصَر، ومن المعلوم أنَّها آلةٌ غيرُ جارحة، فتكونُ دالَّةً على شدَّةِ البغضاء، حتّى إنَّهم قارَبوا من إهلاكِهِ ﷺ بأنظارِهم الحادَّة كالسِّهام القاتلةِ؛ ليكونَ أكثرَ إبانةً للعَداوة والبغضاءِ لهُ.

دلالةُ الإغراقِ والمبالغةِ في ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾:

الإغراقُ والمُبالغة تعبيرٌ عن شدَّةِ المُفارقة والمُباينة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بأسلوبِ (الإغراقِ البديعيِّ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ للدَّلالة على شِدَّةِ العَداوة والكراهيَة من الكافرينَ للنَّبيِّ ﷺ، وهذا التَّوجيهُ البديعيُّ مبنيٌّ على إرادةِ المعنى المَجازيِّ دونَ الحقيقة في ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ إذ من المعلوم أنَّ (الأبصارَ) ليستْ آلةً للصَّرْع والقتلِ والإزهاقِ، لكنَّ النَّظمَ بالَغَ في تصويرِ (العداوة)، حتَّى كأنَّ الأبصارَ

من شدَّةِ حِدَّتها ونظَرِها الحاقدِ تقتُلُ، وتُزلِقُ، وتُزهِقُ، وهذا من الإغراقِ "المُستحيلِ عَقْلًا وعادةً، لكنْ يُقرِّبُه إلى الصِّحَّة لفظُ (يكادُ)، وذلك مثلُ قولِه تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النّور: 35]"[1]، ولذا قالَ البيضاويُّ: "أي: لو أمكنَهُ بنظَرِه الصَّرْعُ؛ لفعلَهُ"[2].

دلالة الإضافة في (أبصارهم):

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الأبصار) في قولِه تعالى: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ للدَّلالة على التَّعريفِ والتَّعيينِ والتَّشخيص؛ إذ يكتسِبُ المضافُ من المضافِ إليه المعرفةَ التَّعيُّنَ والامتياز، وفي تشخيصِ الأبصار إشارةٌ إلى أنَّها أبصارٌ كافرةٌ جاحدةٌ مثلَ أصحابها، فلم تعُدْ ترى، ولا تنظُرُ إلّا بعينِ الكراهيَةِ والحِقدِ والغِلِّ.

الإشارةُ إلى أنَّها أبصارٌ كافرةٌ جاحدةٌ مثلَ أصحابها

دلالةُ ﴿لَمَّا﴾ والغرَضُ منها:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿لَمَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾؛ للدَّلالة على الظَّرفيَّةِ الحينيَّة، أي: إنَّهم يَكادونَ أنْ يَقتلوك بأبصارِهم عندَ سَماعِ آياتِ القرآن منك، وفي تقييدِ كراهيتِهم الشَّديدةِ بحينِ سَماعِ الآياتِ المتلوَّةِ إشارةٌ إلى أنَّ كراهيتَهم لهُ في الأحوالِ العاديَّةِ مُستحكِمةٌ، إلّا أنَّها تزدادُ قوَّةً، وتكبُرُ عندَ سماعِهم آياتِ القرآن، فكانَ تأشيرُ إزلاقِ الأبصار بحالةِ السَّماع تأكيدٌ على أنَّ تلك الكراهيةَ تزدادُ في ذلك الظَّرف؛ لِتَعودَ إلى حالتها الاعتياديَّة المُستحكِمة عندَ عدمِ السَّماع.

أشنعُ الأحوالِ كونُ الهُدى مُؤَثِّرًا في زيادةِ الضَّلال

دلالةُ الفعلِ الماضي (سَمِعَ) مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (السّماع) ماضيًا في قولِه تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾؛ للإشارةِ بصيغتِه "إلَى أنَّهُ قَدْ حَصَلَ مِنْهُمْ ذَلِكَ، ولَيْسَ مُجَرَّدَ فَرْضٍ"[3]، وبمادَّتِه على أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يُسمِعُهم

السَّمعُ آلةُ الانتفاعِ تتحوَّلُ لآلةِ عدمِ الانتفاع

(1) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 19/ 252.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 238.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108.

القرآنَ لعلَّهم يُبصِرونَ الحقَّ، فيؤمنوا، إلّا أنَّهم كانوا يَسمعون، فتزدادُ الكراهيَةُ حتّى تكادَ الأبصارُ تقتلُهُ، وجمع النَّظمُ بينَ (السّمع والأبصار) للكافرين؛ للدَّلالة على أنَّ سمعَهُم صار مُعطَّلًا عنِ الانتفاع، وأنَّ أبصارَهُم تحوَّلتْ لسِهامٍ تريدُ القتلَ والإيذاء، فلا أملَ بإيمانهم، ولا ترجّيَ لهدايتهم.

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾:

تِـلاوةُ الـذِّكـر الحَكيم لهِدايةِ المتَّقين

عرَّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ بـ(أل) في قولِه تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾؛ للدَّلالة على العهدِ المَعلومِ في ذِكرٍ مُعيَّنٍ يُسمَعُ من النَّبيِّ ﷺ، وهو القرآنُ الحكيم؛ إذ كانَ يتلوهُ عليهم بقَصْدِ هدايتِهم وإرشادِهم وتذكيرِهم باللّه تعالى، وبما يَنبغي عليهم القيامُ به، فتكون (أل) للعَهْدِ العِلْميِّ في ذكرٍ مَخصوصٍ، وهو القرآنُ الكريم.

دلالةُ المجازِ المُرسَل في ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ ووظيفتُهُ:

وظيفةُ سماعِ القرآنِ الذِّكرُ والتَّذكيرُ بالرَّحمن

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ مُرادًا به القرآنُ الكريم، فهو مجازٌ[1] مُرسَلٌ علاقتُهُ الجُزئيَّة؛ إذِ القرآنُ العظيم يشتملُ على ذِكرِ اللّه تعالى، والغرضُ منَ العُدول في التَّسميةِ الإشارةُ إلى أنَّ القرآن وظيفتُهُ الذِّكرُ للّه تعالى والتَّذكيرُ به.

حَذْفُ جوابِ ﴿لَمَّا﴾ الشَّرطيَّة:

الحذفُ للجَواب تصويرٌ لشِدَّةِ الحِقد العُجاب

حذفَ النَّظمُ الكريمُ جوابَ ﴿لَمَّا﴾ بناءً على أنَّها شرطيَّةٌ في قولِه تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾؛ وتقديرُهُ إمّا: (لم يملِكوا أنفسَهُم حسَدًا)[2]، أو (ينبعثْ عندَ سماعِهِ بغضُهُم وحَسَدُهم)[3]، والغَرضُ منَ الحذف تصويرُ شدَّةِ الكراهيَةِ المُنبعثةِ مِن سَماعهِم للذِّكر الحَكيم، حتّى إنَّها لا تُكشَفُ، ولا يُعبَّرُ عنها بخصوصِها،

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 253.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 597.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 238.

وإنْ كانتْ تُفهَمُ بقرينةِ المَقام أنَّها من جنسِ الحسَد والبغضِ النّاشئ عن السَّماع.

دلالةُ (الواوِ) في ﴿وَيَقُولُونَ﴾ والغَرضُ منها:

تكذيبهم كان واقعًا بأبصارهم وأسماعهم وألسنتهم

عبَّرَ النظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ بالعطف على ما قبلَهُ؛ للدَّلالة على الرَّبطِ والجمع بينَ مُقاربتهم إزلاقَهُ بأبصارِهم، وبينَ قولِهم واتِّهامِهم له بالجُنونِ بألسنتهم، فكانَ التَّكذيب واقعًا منهم بالأبصارِ والسَّماع والألسنة، ولا توجدُ كراهيةٌ قلبيَّةٌ أعظمُ من اجتماعِها على هذه الحَواسِّ.

دلالةُ الفعلِ (يَقولونَ) مادَّةً وصيغةً:

يتجدَّدُ الاتِّهام بتجدُّدِ سَماعِ الآياتِ والكَلام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بفعلِ (القول) مُضارعًا في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾؛ للدَّلالةِ بصيغتِهِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ إذ يَستمرُّ القولُ الاتِّهاميُّ الشَّنيعُ للنَّبيِّ الكريم ﷺ، ويَتجدَّدُ كلَّما سَمِعوا القرآنَ، ويزدادُ حَنَقُهم وبُغضُهم، وللدَّلالة بمادَّتِه على صدورِ ألفاظٍ نابعةٍ منِ اعتقادٍ قلبيٍّ، ويقولونَهُ بشكلٍ سهلٍ ومُستساغ، وما ذلك إلّا دليلُ موتِ قلوبِهم الصّمّاء.

علّة تصعيد الاتّهام بشخصه الشريف ﷺ:

توقَّف المفسِّرون عندَ علَّةِ القول وسببِ الاتِّهام للنَّبيِّ ﷺ دونَ الذِّكرِ الحكيم، فقال ابن عاشور: "والمَعْنَى: يَقولونَ ذَلِكَ اعتلالًا لأَنْفُسِهم؛ إذ لَمْ يَجِدوا في الذِّكرِ الَّذي يَسْمَعونَهُ مَدْخَلًا للطَّعْنِ فيه، فانصَرَفوا إلَى الطَّعْنِ في صاحِبِهِ ﷺ، بأَنَّهُ مَجْنونٌ؛ ليَنْتَقِلوا مِنْ ذَلِكَ إلى أنَّ الكَلامَ الجاريَ على لِسانِهِ لا يوثَقُ بِهِ؛ ليَصْرِفوا دَهْماءَهُمْ عَن سَماعِهِ، فَلِذَلِكَ أبْطَلَ اللهُ قَوْلَهُمْ: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: ما القُرْآنُ إلّا ذِكْرٌ لِلنّاسِ كُلِّهِمْ، ولَيْسَ بِكَلامِ المَجانينِ، ويَنْتَقِلُ مِنْ ذَلِكَ إلى أنَّ النّاطِقَ بِهِ لَيْسَ مِنَ المَجانينِ في شَيْءٍ"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108.

سرُّ تَوالي المؤكِّدات في ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٌ﴾:

الغُرورُ والاستكبار يُعمي القُلوبَ والأبصار

أكَّدَ النَّظمُ القرآنيُّ مقولَ القولِ الّذي افتراه الكافرُ بثلاث مُؤكِّدات في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٌ﴾؛ إذِ اجتمعَتْ فيه: (إنَّ واللّامُ واسميَّةُ الجملة)، وذلك ليدلَّ على جَزمِهم بذلك الحُكم، وردِّهم لكلِّ مَن يُنكره أوْ لا يُقرُّ به، فقد بالغوا في الغُرور والاستكبار، وأصمّوا العقولَ والأبصار، ووجهٌ آخر يُستنبط من التَّأكيد وهو أنّه في قرارة أنفسهم ريبٌ لوجودِ ما يُناقض اتِّهامَهم، حتّى لَجؤوا إلى التَّوكيدِ إقناعًا لأنفُسِهم ولَمَنْ يَسمَعُ منهُم بعدَما قامَتِ الدَّلائلُ، وبعد أن كانوا قد اعترَفوا بأنَّه الأتمُّ عَقْلًا والأكملُ رأيًا فيهِم.

مَرْجِعُ الضَّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ ودِلالتُهُ:

الاتِّهامُ بالجُنون افتراءٌ وفُتون

عبَّر النَّظمُ الكريم بضميرِ الغَيبة في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٌ﴾؛ إمّا لأنَّه راجعٌ إلى النَّبيِّ ﷺ المذكورِ في سياق كلامِهم أوْ مَن يتحدَّثون عليه غالبًا في مَجالسِهم، فهو مُنْصَرِفٌ إلَى مَنْ يَتَحَدَّثونَ عَنْهُ في غالبِ مَجالِسِهِمْ[1].

أوْ راجعٌ إلى (الذكر) مجازًا، ووصفُهُ بـ(المجنون) حينَئذٍ باعتبارِ وصفِ ذاكِرِه، فيكونُ تسميةً للشَّيءِ باسمِ فاعلِهِ، كقولنا: (هذا قولٌ مجنونٌ)، أي: صادرٌ من مَجنونٍ مبالغةً؛ فهو مجازٌ عقليٌّ من إسنادِ الوصفِ لما صدرَ منه دونَهُ، ويُقوّي هذا ظاهرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، وسواءٌ عادَ الضَّمير إلى النَّبيِّ ﷺ - كما هو الظّاهرُ - أوْ عادَ إلى (الذكر) مَجازًا؛ فإنَّ الغرضَ ربطُ اتِّهامِ الجُنونِ بالنَّبيِّ ﷺ وبما جاءَ به من عندِ ربِّه "تَنْفيرًا عَنْهُ، وقد عَلِموا أنَّهُ ﷺ أتَمُّهُمْ فَضْلًا وأرْجَحُهُمْ عَقْلًا"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 250.

دلالةُ لفظِ (مَجنون) مادَّةً وصيغةً:

منشأُ الاتِّهام بالاضطراب تلاوتُهُ آياتِ الكتاب

عبَّر النَّظمُ الكريم بلفظِ اسمِ المفعول (مَجنون)، في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾؛ للدَّلالة بمادَّتِه على أنَّه مسَّهُ الجانُّ، وآذاه، فجعلَ كلامَهُ مُختلًّا وتصرُّفاتِه غيرَ مُنضبطة، ويدلُّ بصيغتِه على وقوعِه تحتَ تأثيرِ الجُنون، وهذا الاتِّهامُ منشؤُهُ سَماعُهم الذِّكرَ الحكيم والقرآنَ العظيم وتحيُّرُهم في أمره[1]، فاتِّهامُهم في الحقيقةِ مُتوجِّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ من جهةِ تلاوةِ آيِ القرآنِ عليهم؛ إذ كلامُ القرآنِ عن الغَيبيّات واليومِ الآخِر والملائكةِ والكتبِ والأنبياء السّابقين في عُرفهم الَّذي لم يعتادوا الحديثَ فيه عن ذلك، أشبهُ بكلامِ مَن وقعَ تحتَ تأثيرِ الاضطِراب الذِّهنيِّ والفكري؛ إذ تُشَكِّلُ الجملةُ الظَّرفيَّةُ ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾؛ عِلَّةً لإزلاقِهِ بأبصارِهم ولاتِّهامِهم له بالجُنون.

ردُّ الأعجازِ على الصُّدور في ﴿لَمَجۡنُونٞ﴾:

نعمةُ القرآنِ تذكيرُهُ للعالَمين بالبُرهان

ردَّ النَّظمُ القرآنيُّ عَجُزَ السّورة في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ على صَدرِها في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾؛ وبذلك يتحقَّق ارتباطٌ بين الصَّدر والعجُز في الدِّفاعِ عن النَّبيِّ ﷺ وعن القرآنِ العظيم، الذي هو نعمةٌ من نِعَم اللّه تعالى على العالَمين، وعلَّلَ النِّعمة بأنَّه الذِّكرُ والمُذكِّرُ للعالَمين، قال ابن عاشور: "وفي قَوْلِه: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ مع قَوْلِه في أوَّلِ السّورَة: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ مُحَسِّنُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ"[2].

دلالةُ (الواوِ) في ﴿وَمَا﴾:

ذكرُ العالَمين لا يَصدُرُ إلّا مِن أحكَمِ الحاكِمين

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بحرفِ (الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالة على الحالِ المُفيدِ للرَّدِّ والتَّفنيدِ لدَعواهُمُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 597.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108.

الجنونَ للنَّبيِّ ﷺ بعدَ سَماعِهم لآياتِ الذِّكر الحَكيم، والتَّعجيبِ مِن حُكْمِهم الباطلِ بإظهارِ أنَّه ذكرٌ وتذكيرٌ للعالَمين، وكلُّ مَن هذا شأنُهُ؛ فهو حقٌّ مُبين ونورٌ للعقلِ مُستقيم، والمُرسَلُ به من أعظَمِ العاقلين، وقائلُهُ تعالى أحكمُ الحاكِمينَ.

وقال الهرريُّ: "والجملةُ حاليَّةٌ من فاعلِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾، مفيدةٌ لغايةِ بُطلانِ قولِهم، وتعجيبٌ للسّامعينَ من جَراءتِهم على التَّفوُّهِ بتلك الجريمةِ العظيمةِ، أي: يقولونَ ذلك، والحالُ أنَّ القرآنَ ذِكرٌ للعالَمينَ من الثَّقلين، أي: تذكيرٌ وعِظَةٌ لهم، وبيانٌ لجميعِ ما يَحتاجونَ إليهِ مِن أمورِ دينِهم، فأينَ مَن أُنزِلَ عليه ذلك، وهو مُطَّلِعٌ على أسرارِهِ طُرًّا، ومُحيطٌ بجميعِ حَقائقه خَبرًا، ممّا قالوا في حقِّهِ منَ الجنون، أي: إنَّ هذا القرآنَ من أوّلى الأمورِ الدّالَّةِ على كمالِ عقلِهِ وعُلوِّ شأنِهِ، فمَن نسبَ إليهِ القصورَ؛ فإنَّما هو مِن جَهْلِهِ وجِنَّتِهِ، فإنَّ الفضلَ لا يعرفُهُ إلّا ذَووه"[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ(ما) و﴿إِلَّا﴾ والغرضُ منهُ:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بأسلوبِ الحصْرِ بـ(ما و﴿إِلَّا﴾)، في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على قَصْرِ القرآنِ الكريمِ والذِّكرِ الحَكيمِ على الذِّكر للعالَمينَ والتَّذكيرِ والعِظةِ لهُم بما يَهمُّهُم في أمورِ دينِهم ودُنياهم، "فالقَصْرُ قصرُ المَوْصوف على الصِّفَة، فهو إضافيٌّ"[2]، وأفادَ الحصرُ والقصرُ الرَّدَّ على دَعواهمُ الجنونَ بأسلوبِ التَّوكيد في قولِهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾، فأبطلَ ذلك ببيانِ قَصرِهِ على كونِهِ ذِكرًا للعالَمين، ومَن كان هذا شأنَهُ؛ فهو حكمةٌ للعالَمين؛ فكيفَ يوصَفُ قائلُهُ بأنَّه مَجنون؟.

القرآنُ ذكرٌ للعالَمين ونورٌ للمُهتدين وهدًى للمُتَّقين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 253.

دلالة الاحتباك في ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

الاختزالُ في الدَّعوى والجواب من دقائقِ فصلِ الخِطاب

عبَّر النَّظم بأسلوب الاحتباك البديعيِّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّه "إبطالٌ لِقَوْلِهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾؛ لأنَّهُم قالوهُ في سياقِ تَكْذيبِهِمْ بِالقُرْآنِ؛ فَإذا ثَبَتَ أنَّ القُرْآنَ ذِكْرٌ؛ بَطَلَ أنْ يَكونَ مُبَلِّغُهُ مَجْنونًا، وهَذا مِنْ قَبيلِ الاحْتِباكِ؛ إذِ التَّقْديرُ: (وَيَقولونَ: إنَّهُ لَمَجْنونٌ، وإنَّ القُرْآنَ كَلامُ مَجْنونٍ، وما القُرْآنُ إلّا ذِكْرٌ، وما أنْتَ إلّا مُذَكِّرٌ"[1]، والغرضُ من الاحتباكِ الاختزالُ في الإبطالِ على الاتِّهامِ الصَّريح ولازمِهِ الضَّمنيِّ معًا؛ لأنَّه إنْ ثبتَ أنَّ القرآنَ ذِكرٌ؛ فُهِم منهُ أنَّ المُنزَّلَ عليهِ ذِكرٌ وتذكيرٌ لهم أيضًا، وأنَّ المُتَّهمينَ للرَّسول ﷺ بالجُنون؛ بسببِ سَماعهم للقرآنِ يتَّهمونَ القرآنَ بذلك الجنونِ أيضًا، واقتصر النَّظمُ الكريمُ في دَعواهم على اتِّهام الرَّسول ﷺ دونَ اتِّهام القرآنِ صَريحًا؛ لبيانِ عَجزِهم عن اتِّهام القرآنِ صراحةً بالجنون؛ إظهارًا لعَجْزِهم عن مُعارضتِهِ ومُقارعتِهِ، واقتصرَ في الرَّدِّ بالدِّفاعِ عن القرآن دونَ المتَّهَم صَريحًا بالجُنون؛ لأنَّه مَنشأُ غلَطِ الخَصْم، والسَّببُ في تلك الدَّعوى الظَّالمة، وهو أظهرُ في الرَّدِّ؛ إذ ذلك الكلامُ المُعجِزُ لا يصدُرُ إلّا مِن مُنزِّلٍ عليه حكيمٍ.

دلالةُ الضَّمير ﴿هُوَ﴾:

التَّأويلُ بالمَذكور يَجعَلُ المثنَّى كالواحدِ في المَنظور

وقعَ خلافٌ بينَ المُفسِّرين في تحديدِ مَرجِعِ الضَّمير، في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ فقيلَ: هو (القرآنُ الكريم)؛ لأنَّه السَّبب عندَ سماعِهِ باتِّهام الرَّسولِ ﷺ بالجُنون، فيكون إبطالًا للسَّبب، وحينَئذٍ يبطُلُ المُسبَّبُ استلزامًا.

وقيلَ: الضَّميرُ يرجِعُ للرَّسول ﷺ؛ إذِ الاتِّهامُ الصَّريح كان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 109.

مُتوجِّهًا له، فيكون الإبطالُ والتَّفنيدُ كذلك، والرَّسولُ ﷺ كالقرآنِ ذِكْرٌ ومُذكِّرٌ للعالَمين معًا، فهو الدَّليلُ على الله تعالى[1].

كلٌّ واحدٍ منهما ذِكْرٌ

ولا مانعَ مِن كونِ الضَّميرِ عائدًا إلى الاثنين معًا، خاصَّةً بعدَ أنْ فُكَّ النَّظمُ بأسلوبِ الاحتباك، فيجوزُ أنْ يعودَ إليهما معًا بعدَ التَّأويلِ لهُما بـ(المذكور)، أي: كلٌّ من المَذكورِ أعني القرآنَ والرَّسولَ ﷺ ذِكرٌ للعالَمين[2].

سرُّ الإخبارِ بلفظِ المصدرِ ﴿ذِكْرٌ﴾:

القرآنُ عينُ الماهيَّة والرَّسولُ هو تلكَ الهويَّة

أخبرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ المصدرِ ﴿ذِكْرٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ القرآن الكريمَ أوِ الرَّسولَ ﷺ عينُ الماهيَّة الَّتي هي الذِّكر، فلم يُبقِ شيئًا من الذِّكر لغيرِهِ، وذلك أبلغُ من الإخبارِ بـ(ذاكر) لدلالتِهِ على حِصَّةٍ من الذِّكر دونَ كمالِهِ؛ فهو دالٌّ على المُبالغة؛ إذ يُصبحُ المسنَدُ إليه عينَ الحقيقة والماهيَّة، فيكونُ مَجازًا عقليًّا على حدِّ: (جَدَّ جِدُّهُ).

نُكتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ (الذِّكر):

القرآنُ تذكيرٌ بالله، والرَّسولُ رفعةُ شأنِ خَلْقِ الله

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (الذِّكر) في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ إمّا للدَّلالة به على أنَّه يَذْكُرُ ما للخَلْقِ من حُقوق، وما عَليهم مِن واجبات، أوْ منَ الذِّكر وهو النَّباهةُ ورِفعةُ الشَّأن، ولا شكَّ أنَّ القرآنَ الكريم والرَّسولَ ﷺ رفعةٌ لجميع العالَمين، وتاجٌ على رؤوسِ المخلوقات، أو لإرادةِ معنى التَّذكير، فـ"الذِّكْرُ: التَّذكيرُ بالله، والجَزاء هوَ أشْرَفُ أنْواعِ الكَلام؛ لِأنَّ فيهِ صَلاحَ النّاسِ"[3]، وقيلَ معناه: "وما هو إلّا فضلٌ وشرَفٌ للعالَمينَ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44]"[4].

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1547.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 162.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 108.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 116.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿ذِكْرٌ﴾:

نكَّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ذِكْرٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَلَمِينَ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيمِ والتَّفخيم لشأنِ القرآنِ الكريم والرَّسولِ ﷺ في كونهما ذكرًا عظيمًا ومُذكِّرًا فخمًا بالله تعالى؛ لأنَّ ذكرَهما ما للخلقِ في دينِهم ودُنياهم، وما فيه سَعادتُهُم وشَقاؤُهُم لا يُعادِلُهُ أيُّ ذكرٍ وأيُّ كلامٍ.

أفضلُ الذِّكر كلامُ اللهِ، وأعلى المُذكِّرين رسولُ الله ﷺ

دلالةُ (اللّام) الجارَّةِ في ﴿لِّلْعَلَمِينَ﴾ والغرضُ مِنها:

عبَّرَ النَّظم الكريمُ بـ(اللّام الجارّة) في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَلَمِينَ﴾؛ للدَّلالة على الاختصاصِ معَ الإيحاءِ بالغرضيَّة؛ إذ هذا الذِّكرُ الحكيمُ مُختصٌّ بالثَّقلينِ من الإنسِ والجنِّ، وقد جاءَ لأجلِهِم ولمَنفعتِهِم في دينهم ودُنياهم، ومن شأنِ المُختصِّ به الآتي لأجلِهِ أنْ يُهتَمَّ بِهِ، ويُعتَنى بشأنِهِ.

الذِّكرُ لأجلِ العالَمين ليَستجيبَ لهُ جميعُ الثَّقَلَين

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في (العالَمين):

عرَّف النَّظمُ الكريمُ لفظَ (العالمينَ) بـ(أل) في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَلَمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستغراقِ العُرفيِّ بأفرادِ الثَّقلينِ منَ الجنِّ والإنسِ أجمعين، وشأنُ المُعرَّفِ بـ(أل) الدّاخلةِ على لفظِ الجَمْع الدَّلالةُ على الاستغراقِ الكلّيِّ، والذي يبدو لنا أنَّ المرادَ بـ(العالَمين): جميعُ العوالمِ منَ الثَّقلينِ وغيرِها؛ إذِ القرآنُ الكريم ذاكرٌ لأخبارِ أجناسِ الخلائقِ أجمعين، وأمّا إنْ فُسِّرَ (الذِّكر) بالمُذَكِّر والتَّذكير؛ فإنَّهُ يختصُّ بعالَمَي الإنسِ والجنِّ فحسبُ، قال ابن عاشور في تفسيرِ (سورةِ الفاتحة): "وَإِنَّما جُمِعَ (العالَمُ)، ولَم يُؤْتَ بِهِ مُفْرَدًا؛ لِأَنَّ الجَمْعَ قرينَةٌ على الاستغراق؛ لِأَنَّهُ لَوْ أُفْرِدَ؛ لَتُوُهِّمَ أَنَّ المُرادَ مِنَ التَّعْرِيفِ العَهْدُ أَوِ الجِنْسُ، فَكانَ الجَمْعُ تَنْصِيصًا عَلَى الاستِغْراقِ، وهَذِهِ سُنَّةُ الجُموعِ مَعَ (أل) الاستِغْراقيَّةِ عَلَى التَّحْقِيقِ"[1].

كلُّ الأفرادِ مُخاطَبةٌ بالذِّكر المُهتمِّ بشُؤونِ العِباد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 169.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ(العالَمين) مادَّةً وصيغةً:

المُنتفِعونَ بالذِّكْر أهـلُ العِـلْـم والفِكْر

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بلفظِ (العالَمين) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالة بمادَّته على "الجِنْسِ من أجْناسِ المَوْجودات، وقد بَنَتْهُ العَرَبُ على وزْنِ (فاعَل) بفَتْحِ العَيْن، مُشْتَقًّا مِنَ العِلْم أوْ مِنَ العَلامَة؛ لأنَّ كُلَّ جِنْسٍ لَهُ تَمَيُّزٌ عَنْ غَيْرِه، فَهوَ لَهُ عَلامَةٌ، أوْ هوَ سَبَبُ العِلْمِ بِهِ، فَلا يَخْتَلِطُ بِغَيْرِه"[1]، ويدلُّ بصيغتِه على الاتِّصاف بمبدأ الاشتقاقِ منَ (العَلامة والعالميَّة) على سبيل الاستمرار، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الذِّكرَ مختصٌّ بمَن يتَّصِفُ بالعِلْم على سبيل الاستمرار؛ لكي يَنتفِعَ بآياته، وأمّا مَن فارقَهُ العِلمُ، وجَهِلَ فهْمَ أسرارِ العَوالم؛ فإنَّهُ بعيدٌ عن فَهْم هذا الذِّكرِ الحَكيم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزَّلَقُ والزِّلَّةُ:

الـزَّلَـقُ أخـصُّ مطلقًا منَ الزِّلَّة وأشدُّ منها قوَّةً

الزَّلَقُ: هي الزِّلَّةُ بقيدِ السُّقوط، وهذا القيدُ هو الفارقُ بينها وبينَ الزِّلَّة، فإنَّ الزِّلَّةَ استرسالٌ لطيفٌ من دونِ نَظَرٍ إلى السُّقوط، وإنْ كانَ واقعًا، قال ابن عاشور: "والزَّلَلُ: تَزَلُّقُ الرِّجْلِ وتَثَقُّلُها مِنْ مَوْضِعِها دونَ إرادَةِ صاحِبِها؛ بِسَبَبِ مَلاسَةِ الأرْضِ مِنْ طينٍ رَطْبٍ أوْ تَخَلْخُلِ حَصًى أوْ حَجَرٍ مِنْ تَحْتِ القَدَمِ، فَيَسْقُطُ الماشي عَلَى الأرْضِ"[2]، والتَّعبيرُ بهذه المادَّة إنَّما هو في مَوردٍ يَتحقَّقُ فيه تزلُّقٌ لطيفٌ وانحرافٌ بعدَ التَّثبُّت، سواءٌ كانَ حصولُ الزَّلَل في عمَلٍ أم قولٍ أم رَأيٍ[3]، وأمّا الزَّلَقُ؛ فهو استرسالٌ بعدَ الثُّبوتِ إلى أنْ يَنتهيَ إلى السُّقوط"[4]، فالزَّلَقُ أشدُّ منَ الزَّلل، ومِن ثَمَّ آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ ذِكرَهُ في موطنِ بيانِ حسَدِهم العميق وحِقدِهم، في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 168.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 268.
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 326.
(4) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 4/ 330.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والستون،
سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 63 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-00-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 63 : المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-00-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7111585 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"